﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾

■ بقلم الاستاذ محمد السعدي

لقد أكرمنا الله تعالى ببعثة المصطفى محمد ﷺ، وزادنا فضلاً وكرماً بأن انزل عليه القرآن ليخرجنا به من الظلمات الى النور، ومن عبادة العباد الى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا الى سعة الآخرة، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام، ومن جحيم المعصية الى جنة الطاعة، ومن دوامة العقائد والفلسفات الوضعية الى واحة الحقيقة المطلقة الخالدة: ﴿الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد﴾ ابراهيم: ١، ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ الاسراء: ١٠٥ .

وما من امر جامع يحقق مصالح الناس ويسعدهم في دنياهم وأخراهم، الا له في القرآن ذكر وبيان **﴿ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً كبيراً﴾** الاسراء: ٩، **﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾** النحل: ٨٩ .

ولا حاجة للمسلمين بالعودة الى الكتب السماوية السابقة بحثاً عن الحق والهدى، فالهداية التامة، والحق المطلق، انما هو بين دفتي القرآن العزيز، الذي جعله الله الصورة الأخيرة للدين، والمرجع الأخير للعقيدة، وجعله سبحانه فرقاناً بين الحق والباطل وأميناً ومهيمناً على الكتب السماوية السابقة التي طالتها يد العبث والتحريف: **﴿وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً**

عليه﴾ المائدة: ٤٨ .

ولقد أتم الله لنا النعمة، وأجزل لنا العطية، بأن تكفل بحفظ هذا الكتاب وحمايته من كل محاولة للتحريف والتزييف، حتى لا تكون فتنة للمؤمنين، ولا مطعن للكافرين: **﴿انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾** الحجر: ٩ .

وبسبب هذه العصمة الربانية، وهذه الرعاية الإلهية، ما زال هذا الكتاب منذ اربعة عشر قرناً وسيظل الى قيام الساعة، مصوناً خالداً يهدي الحيارى الى الصراط المستقيم، صراط الحق والنعيم: **﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً﴾** النساء: ١٧٤ .

وسيظل هذا الكتاب الى ان يرث الله الارض ومن عليها المعجزة الخالدة، والحجة الدامغة التي تشهد على صدق رسالة محمد ﷺ **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾** الاسراء: ٨٨ .

وحينما كان المشركون يطالبون نبينا ﷺ بعرض المعجزات المادية التي أيده الله بها كان الله تعالى يسترعي انظارهم الى ان المعجزة بين ايديهم تتلى عليهم آناء الليل وأطرف النهار **﴿وقالوا لولا انزل عليه ءايات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين ❖ أولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾** العنكبوت: ٥٠-٥١ .

ان هذا الكتاب هو دستور حياتنا، ومنهج سلوكنا، وسبيل عزتنا وسعادتنا، وحتى تظل الصلة قائمة بيننا وبين هذا الكتاب، أمرنا الله تبارك وتعالى ان نُقبل عليه ونتلوه حق تلاوته: **﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾** المزمل: ٢٠، **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾** القمر: ٢٢، فلبوا ايها السادة القراء نداء الله ورتلوا القرآن ترتيلاً، واعلموا ان لكم في تلاوة القرآن فضلاً كبيراً، وثواباً عظيماً .

وحسبكم قول نبيكم محمد ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر امثالها لا أقول: الم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»، وقوله: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، الا نزلت عليهم السكنية وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده».

واذا كنتم تطمعون ان تجدوا من يشفع لكم يوم القيامة، فالقرآن الكريم يشفع لكم اذا تعهدتموه في الدنيا وانزلتموه المنزلة التي يستأهلها، يقول المصطفى ﷺ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة

شفيعاً لأصحابه»، واذا كنتم تطمحون الى المكانة الرفيعة في الدنيا والآخرة، فتعلموا تلاوة القرآن وعلموها ازواجكم وأبناءكم وجيرانكم وتلاميذكم، يقول سيد المرسلين ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» ولا يعتذرن احد بأنه يجهل التلاوة فالجاهل ينبغي ان يتعلم وينبغي ان يحاول ويبذل كل ما في وسعه، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والذي يقرأ القرآن وهو يتتعتع فيه، له اجران كما بين خاتم المرسلين محمد ﷺ.

وان لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد كان ﷺ يتلو القرآن في معظم الاحيان وفي مختلف الاحوال، وكان يتلوه آية آية في تدبر وتمعن وعلى مهل، وكان ﷺ يحب ان يستمع الى تلاوة القرآن من غيره، وقد روي انه طلب مرة من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ان يسمعه قرآناً، فتردد وقال: أأقرأ وعليك أنزل؟ فقال ﷺ: «اني احب ان اسمعه من غيري» فقرأ له ابن مسعود من سورة النساء حتى اذا وصل الى قوله تعالى: **﴿فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ❖ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾** النساء: ٤٠-٤١، فقال رسول الله ﷺ: «حسبك حسبك» واغرورقت عيناه بالدموع، شعوراً برهبة الموقف وثقل المسؤولية، وإشفاقاً على أمته وأتباعه من شهادة يوم الحساب.

واذا فاتنا ان نتلو القرآن لسبب او لآخر، فلا أقل من ان ننصت خاشعين حينما يُتلى على مسامعنا كما أمر منزل الكتاب جل وعلا: **﴿واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾** الاعراف: ٢٠٤ .

ان تلاوة القرآن الكريم لا تستهدف استمطار الرحمة على الأموات، ولا إطراب الكسالى وتسليتهم، ولا إظهار البراعة والتفوق في علوم التجويد والقراءات، وإنما تستهدف تنوير العقول، وإحياء القلوب، وإصلاح النفوس، فالقرآن نزل لإحياء الأموات لا لإماتة الأحياء: **﴿يا أيها الذين ءامنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم﴾** الانفال: ٢٤ .

نزل القرآن الكريم لتتفكر فيه العقول، وتتأثر به القلوب، ويتحول هذا التجاوب وتلك المعايشة الى عقيدة صلبة، وعمل خلاق، وسلوك مستقيم **﴿كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا ءاياته وليتذكر اولوا الألباب﴾** ص: ٢٩، **﴿أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب أقفالها﴾** محمد: ٢٤ .

وكم وبخ الله تعالى اليهود لأنهم لم يفقهوا تعاليم التوراة، ولم يضعوها موضع التطبيق تحذيراً للمسلمين من هذا السلوك

الشنيع **﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً﴾** الجمعة: ٥، وكم اثنى الله عز وجل على المؤمنين الذين يتبعون التلاوة بالالتزام بتعاليم الدين والعمل الصالح **﴿ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ❖ ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله انه غفور شكور﴾** فاطر: ٢٩-٣٠ .

ان هذا الكتاب ينبغي ان نقبل عليه بروح المعرفة المنشئة للعمل، وان نتلقى اياته كما يتلقى الجندي اوامر قائده في الميدان.

ان هذا الكتاب لم ينزل لنزين به المكتبات ولا لنقرأه على الاموات، ولا لنتخذه احرازاً وتعاويذ، وانما نزل ليكون منهج الحياة، ودستور الدولة، وشريعة المجتمع، نزل ليتحول الى قوانين تنظم حياة الناس، ومناهج تهدي العقول، وتصلح النفوس، وتهذب الأخلاق، نزل ليتحول الى صدق في القول، وأمانة في العمل، وجهاد في ميادين الحياة.

ان القرآن الكريم اذا صادف حساً مرهفاً، وقلباً سليماً، ونفساً توّاقة الى الحق، يفعل الأعاجيب، ويفجر طاقات الخير والإبداع في الانسان، ويتحول الى إيمان والتزام واستقامة وطهارة، يقول الحق جل وعلا في وصف هذا النمط الخير من الخلق: **﴿انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ❖ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ❖ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون﴾** السجدة: ١٥-١٧ .

ولقد قص الله سبحانه وتعالى علينا خبر طائفة من النصارى المنصفين، الذين ما ان سمعوا القرآن وأدركوا انه الحق من ربهم، حتى سارعوا الى الايمان والتصديق ونطقوا بشهادة الحق والتوحيد، يقول الحق تبارك وتعالى: **﴿لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون ❖ واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا ءامنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾** المائدة: ٨٢-٨٣ .

بل ان الجن انفسهم حينما سمعوا هذا القرآن يترقرق على لسان المصطفى ﷺ تفجرت ينابيع الهداية في قلوبهم، وتجاوبت مع دعوته فطرتهم، فهرعوا الى الايمان به وحمل رسالته: **﴿واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين**

❖ قالوا يا قومنا انا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ❖ يا قومنا أجيبوا داعي الله وءامنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ الاحقاف: ٢٩-٣٢ .

فامنحوا القرآن قلوبكم يمنحكم الهداية والايمان، وامنحوا القرآن عقولكم يمنحكم الحكمة والفرقان، وامنحوه سواعدكم يمنحكم الحضارة والعمران، لقد شكا رسول الله ﷺ الى ربه ما عاناه من إعراض قومه عن القرآن وهجرانهم للفرقان: **﴿وقال الرسول يا رب اني قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾** الفرقان: ٣٠ .

ولو كان ﷺ اليوم حياً لامتلأت نفسه بالحسرة، وارتفع صوته بالشكوى وهو يرى هذه الأمة تهجر القرآن، وتصم عنه الآذان، وتشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، تستبدل قانون الأرض الجائر بقانون السماء المعصوم.

وتنسى هذه الأمة ان هذا الكتاب -وهذا الكتاب وحده- هو الذي صنع لها كياناً ودولة ومجداً وحضارة وبوأها سيادة العالم: **﴿لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾** الانبياء: ١٠ .

والتاريخ خير شاهد على ان هذه الأمة عزّت يوم تمسكت بالقرآن، واعتصمت بحبله المتين، وسارت على صراطه المستقيم، وذلت هذه الأمة حينما أعرضت عن هذا الكتاب، ونحته عن مسرح الحياة والسياسة والاجتماع والاقتصاد: **﴿ومن اعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى ❖ قال رب لما حشرتني اعمى وقد كنت بصيراً ❖ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾** طه: ١٢٤-١٢٦ .

ولن يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها، ولا منجاة لهذه الأمة ولا عزة ولا وحدة ولا نصر الا بالعودة الى كتاب الله.. وان هذا الكتاب الذي صنع بالأمس الأبطال، وربى الرجال وأحيا أمة، وأقام حضارة، لقادر اليوم ان يصنع نفس الصنيع، ويلعب ذات الدور، اذا اعدناه الى مكانته اللائقة، وحكمناه في سائر شؤون حياتنا.

ان الله استأمننا على هذا الكتاب، وحملنا مسؤولية هذه الرسالة، وهو سائلنا يوم القيامة عما استرعانا حفظنا أم ضيعنا: **﴿فاستمسك بالذي اوحي اليك انك على صراط مستقيم ❖ وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون﴾** الزخرف: ٤٣-٤٤، فإلى القرآن أيها المسلمون، الى التلاوة الحقة، والتدبر الخلاق، والتطبيق والعمل، والله الموفق والهادي الى سواء السبيل.